

الفصل الثانى

الطبيعة

يعتبر مفهوم الطبيعة ثانى مجالات الفلسفة الدينية الذى يظهر فيه التوفيق بين الدين والفلسفة عند « رويس » .

أولاً : الطبيعة الإجتماعية :

يرى « رويس » أن دائماً ما يتم الفصل بين الطبيعة الإجتماعية والطبيعة المادية ، فيدرك الإنسان من جهة « الطبيعة » بوصفها سلسلة من الظواهر الموضوعية المرتبطة بسلسلة من القوانين الثابتة ، أى بإعتبارها « عالم الوصف » ، ويدرك من جهة أخرى « العالم الإجتماعى » بوصفه عالم العمليات الإرادية الواعية ، عالم الأفراد ، أو بإعتباره « عالم التقدير » . وبذلك يصبح هناك تفسيران للعالم المعروف ، أحدهما مادى والثانى إجتماعى ، مع يأس من إكتشاف أى رابطة معقوله بين العالم الطبيعى والعالم الإجتماعى ، أو بين المادى والعقلى ، الضرورى والحر ، والحقيقة أنهما عالمان متباينان ومتحدان فى نفس الوقت (١) . وإذا ما تم تحديد المقصود بالطبيعة والمقصود بالعقل ، ومعرفة النوافع الأساسية لإعتراف الإنسان بالعالم الطبيعى ، وبالعالم العقلى ، يتم إكتشاف الوحدة بين العالمين .

أ - الصفات المشتركة بين العقل والمادة .

ويوضح « رويس » أن الطبيعة الواعية تشارك الطبيعة المادية فى عمليات أربع :

فولاً : تخضع كليهما لمبدأ « عدم عكس عملياتهما » ، بمعنى أن ما يحدث ، لا يعود للحدث مرة ثانية ولا يتم إلغائه . والحقيقة أن هذا المبدأ ينتشر فى الطبيعة كلها ، وحقيقى وواقعى مثل الطبيعة ذاتها ، ويقترح فى نفس الوقت ، وجود نوع من التأثير الباطنى على

J.Royce : TheWorld And The Individual , P.II p.158.

(١)

الطبيعة المادية ذاتها ، وبأن الطبيعة المادية من الممكن أن تكون مظهراً لعملية تغير وتحول باطنى ، مثل العمليات العقلية ، وإن كانت تتم بمعدل زمنى مختلف .

وثانياً : يتضمن كلا الجانبين للطبيعة ، إتجاه كل جزء إلى الإتصال بالأجزاء الأخرى ، وتأثر ما يحدث فى مكان ما ، بما يكون قد حدث فى مكان آخر . فتتجه « الأفكار » فى الوعى الذاتى إلى التواصل والتوافق مع الأفكار السابقة ، وتتأثر وتتوافق العقول الإنسانية مع بعضها البعض فى العلاقات الإجتماعية . فتتشابه تلك العمليات مع سلسلة من العمليات الطبيعية المادية أو ما يسمى فى العلم « بحركة الأمواج » . لذلك يعتبر مبدأ « الإتصال المتبادل » ، مبدأ سائداً فى الطبيعة كلها ، ويرتبط بالمبدأ الأول ، أى مبدأ « اللاعودة » أو الإلغاء للعمليات التى تمت وانتهت .

وثالثاً : يتشابه كلا من العقل والمادة فى عمليات تشبه العمليات العقلية المساة « بالعادات » ، فتحدث الظواهر الطبيعية بإيقاعات منتظمة ، مثل دقات القلب ، ودوران الأرض . وهناك إنتظام فى الظواهر الطبيعية يشابه « حياة العادة » فى العمليات العقلية . فالعادات عبارة عن ميول للإنتظام والتناغم فى الحياة الواعية ، وعن إيقاع يغلب على كل العمليات والإتجاهات ، ويكون استمرارها مثل القانون الطبيعى .

ورابعاً : يحدث تشابه فى العمليات المشتركة بين الجانب الواعى والجانب اللاواعى فى الطبيعة فى عمليات التطور ذاتها - فلم تعد العمليات التطورية المستمرة من اللاعضوى إلى العضوى ، السمة الوحيدة لشراكة العقل والمادة ، وإنما أصبحت واحدة من العديد من العمليات ، التى تشترك وتتشابه فيها عمليات الطبيعة الواعية واللاواعية .

والحقيقة أنه إذا ماتم النظر لهذه العمليات المشتركة والمتشابهة بين جانبي الطبيعة ، فمن الواضح أن التضاد والتباين بين المادة والعقل ، لا يعد حقيقياً ، وإنما ظهر نتيجة المبالغة فى دقة النظريات العلمية . فحقيقة يضع العلم تصورات نظرية دقيقة ، ولكن إفتراض

صدقها ، أدى إلى إعتبار المادة « جوهر ثابت » ، فإذا ما إستمر التطور وعملياته ، يصبح الوعى نتيجة للصدفة ، ومظهراً لا يعرف أحد جوهره أو حقيقته . إن العقل والمادة متصلان ومتماثلان ومتناظران (١) . ويؤكد « رويس » أنه لا توجد هناك طبيعة « لاواعية » ، أو مادية ، وإنما توجد طبيعة « صامتة » ، تحدث عملياتها العقلية ، بمعدل زمنى يختلف عن المعدل الزمنى للعمليات العقلية التى تحدث للإنسان . ولذلك يصبح للطبيعة جانبان ، يتعامل معهما الإنسان بإعتبارهما مظهرين لعملية عقلية واسعة . قد تختلف علاقاتهما الزمنية ، ولكن لهما صفات واحدة . وتبعاً لذلك يصبح التطور عبارة عن سلسلة من العمليات ، التى تظهر بإعتبارها أنماطاً مختلفة لعمليات عقلية واعية ، تتشابه مع حالات وعمليات العقل الإنسانى ، والأفراد ، وتختلف فى حالة المادة اللاعضوية . وعندما يتعامل الإنسان مع الطبيعة ، يكون كلاهما جزءاً من « وعى أكبر أوسع » ، ويتشابهان فى تكوين وتشكيل عادات متكررة وثابتة ، وفى ترك « أحداث » ومواقف قديمة من الخبرة ، خالدة لا تمحى . ويكون هذا الدور أو الإنتقال بين القديم « الخالد » « المتكرر » ، وبين العادة والجدة ، بين الإنتظام والإيقاع واختفائه ، شيئاً واضحاً فى كل مكان فى الطبيعة وفى العقل الإنسانى أيضاً . ويمثل كفاحاً تجاه المثل العليا ، وعبارة عن عملية مستمرة للبحث عن الأهداف بدون نهاية ، وتظهر فيه عوالم جديدة للخبرة ، مرتبطة بالخبرات القديمة ، وتختلف سرعة ظهور العوالم الجديدة ، فتكون بطيئة فى الطبيعة اللاعضوية ، وسريعة جداً فى العقل الإنسانى ، ولا يعنى هذا البطئ فى الطبيعة ، أنها على درجة أقل من الوعى الإنسانى (٢) .

ب - الوعى الإنسانى والوعى والطبيعى

والحقيقة أن الوعى الإنسانى يرتبط بمدة أو فترة زمنية معينة للإدراك ، وتكون علاقته بالزمن ثابتة . فعندما يدرك الإنسان شيئاً فى الداخل ، قد يحدث تغير فى محتويات الوعى ، ولكنه لا يكون سريعاً أو بطيئاً . بينما عندما يلاحظ شيئاً فى الخارج ، فإنه لا يستطيع مثلاً ملاحظة « حدث » فى جزء من الثانية ، ويختلط الحدث بنتائجه ، التى يمكن ملاحظتها بعد

Ibid., p. 222.

(١)

Ibid., p.227.

(2)

حدوثه . من جهة أخرى ، إذا ما إستمر « الحدث » أكثر من عدة دقائق فإنه لا يشكل لحظة كاملة من لحظات الوعي الإنساني ، معنى ذلك أن علاقة الإنسان بالزمن علاقة ثابتة ، حتى يستطيع أن يدرك سرعة أو بطئ الأحداث الخارجية . والواقع أن ذلك ينطبق أيضاً على الطبيعة ، فالوعي الباطن للطبيعة تكون مرتبطاً بمدة زمنية معينة ثابتة . ولذلك يظهر الجانب اللاعضوي من الطبيعة ، بإعتارة دلالات ظاهرية لكائن ، إحتاج للملايين السنين لتكتمل لحظة وعية ، وظهر ما يلاحظه الإنسان في الطبيعة ، بإعتباره علاقات ظاهرية ، وبإنه وعباره عن وجود رتيب ثابت ، لا يبدو متغيراً للوعي الإنساني، بينما يكون وجود هذا الجانب من وجهة نظر هذا الكائن ، وفي حياته الباطنية ، وجوداً واضح التغير لذلك يمكن القول بأن « الطبيعة » دلاله أو علامة على وجود وعى محدود غير الوعي الإنساني ، تختلف فترة إدراكه الزمنية عن فترة إدراك الوعي الإنساني ، ولكنه لا يكون أقل معقولة أو موضوعية أو كرامة أو إرادة عن الوعي الإنساني ، بل قد يكون مساوياً للوعي الإنساني أو أرقى منه ، ومهما بدت وقائع الطبيعة الخارجية ، التي تعد مظهراً له لا عضوية ، فإن عملياته الداخلية ، تكون متواصلة وثابته ، وتؤدي إلى ظهور وقائع وإنقسامات جديدة على مر الزمان (١) .

وبذلك يمكن تفسير التطور في الطبيعة ، بأنه عبارة عن إتصال باطنى بين عدد كبير من الأقسام المنفصلة المتواجدة في هذا العالم من الحياة الواعية ، ولعرفة كيف تظهر عوالم جديدة من الخبرة الواعية . فإنه يمكن ملاحظة ما يحدث في عالم العلاقات الإجتماعية ، عندما يحدث إتصلاً بين « فرد » ما ، مع وعى ما « آخر » يكون سابق الوجود عليه ، فيثير فيه مثلاً وأفكاراً جديدة وذات وشخصية جديدة (٢) . ويرى « رويس » أنه إذا ما صح هذا التفسير لعملية التطور ، تكون كل التغيرات التطورية في هذا العالم ، قائمة على عمليات تتصف بصفات ثلاث ، الأولى أنها تكون عمليات متدفقة ، مليئة بتغيرات محكمة لأهداف مثالية ، والصفة الثانية أنها تكون - كما يحدث في العمليات الفكرية الإنسانية - متصلة بعمليات أخرى تحدث في أقسام أخرى ، والصفة الثالثة ، أنها تتجه وسط كل التغيرات للحصول على عادات محددة ، فإذا ما نظر الإنسان للطبيعة نظرة شاملة تظهر له هذه

Ibid., p. 229.

(١)

Ibid., p.230.

(٢)

العادات فى صورة إيقاعات منتظمة وتبية ، بسبب التأثير الإدراكى لحدود الخبرة الإنسانية ، والحقيقة أن كل ظاهرة طبيعية ، إذا نظر إليها من الداخل ، تكون فى حد ذاتها تحقيقاً لمثل أعلى ، فلا وجود لطبيعة ميتة ، أو لطبيعة لا عضوية أو لا واعية ، بل هناك حياة وكفاح ومثل عليا تتحقق (١) . ويؤكد « رويس » من جهة أخرى ، أن هذا التشابه بين العمليات الطبيعية والعمليات الإنسانية ، لا يعنى مطلقاً أن الهدف الوحيد للطبيعة ، يتمثل فى خدمة الإنسان ، أو قد يعنى تشابه الإنسان مع الحيوان ، فى درجة الوعى والمدة الزمنية للوعى ، فعندما يتعامل الإنسان مع « الحيوان » لا يكون الحيوان عاقلاً أو لا عاقلاً ، وإنما يظهر كجزء من المعقولة بالنسبة للنوع كله ، فلا يكون الحيوان المفرد مخلوقاً عاقلاً ، وإنما يكون جزءاً مؤقتاً من « شخص » (نوع) ، تكون فترة وعية الزمنى أطول من فترة الوعى الإنسانى . تماماً مثلما تكون الكلمة فى العبارة اللغوية ، جزءاً من معنى العبارة كلها . فالفرد من أفراد الحيوان ، يكون جزءاً من حياة واعية حقيقية ، لها مثلها العليا وحياتها وأخلاقها ، وذلك ما يبرر صداقة الإنسان للحيوان . وينطبق ذلك على الجماد ، فلا يعنى وعى الطبيعة أن « المنضدة » مثلاً كائن ، أو مدرك ، وإنما يعنى فقط أنها جزء من حياة عقلية واعية . كما ينطق ذلك أيضاً على النوع الإنسانى ، فأفراد الإنسان ، ما هم إلا جزءاً من خبرة واعية محدودة ، ذات فترة زمنية أطول الأطول من الوعى الزمنى للفرد العادى عن أفراد الإنسان ويظهر هذا الوعى المحدود ذات المدة الزمنية الإطول ، فى عمليات الذاكرة وغريزة النوع الإنسانى ويكون كائناً حياً ومتفرداً وعاقلاً ومستمراً مع كل فرد من أفراد البشرية (٢) .

ج - أسبقية الإعتقاد فى وجود الآخرين

كذلك يؤكد « رويس » أن الإعتقاد فى « وجود الطبيعة » لا ينفصل عن « الإعتقاد فى وجود الآخرين » ، ولا يمكن فهم أى من الإعتقادين منفصلاً عن الآخر . ومهما كان الواقع العميق وراء الطبيعة ، فإن عالم المادة والقوانين ، يكون عالماً قابلاً للمعرفة لكل الأفراد بنفس الصورة التى يكون بها معروفاً بها لئى ذات فردية ، وإذا ما تم إستبعاد الإعتقاد فى وجود

Ibid., p. 231.

(١)

Ibid., p.233.

(٢)

الآخرين ، أو العامل الإجتماعى عموماً ، يحدث تغيير فى نظرة الإنسان للطبيعة وتتبدل صفاتها الأساسية (١) . حقيقة قد لا يكون كل ما يوصف بالوجود أمراً معروفاً لكل الناس ، فالؤمن يعتقد فى وجود الله ، بالرغم من عدم معرفة كل الناس لهذا الوجود . وعندما يكون هناك سر بين فردين ربما يظل غير معروف لكل الناس بالرغم من وجوده ، وإعتقاد الفرد فى وجود « عقل » جاره ، لا يستند على معرفة ما يدور فى داخله . ولكن كل هذه الأنماط من الوجود تختلف عن نمط الوجود الذى توصف به الأشياء المادية ، فإذا ما قال فرد ما ، بوجود موضوع مادى هناك ، وأنه يستطيع رؤيته ولمسه ولم يستطع أى فرد آخر رؤية أو لمس هذا الموضوع الذى يقرر وجوده ، فإن هذا الموضوع ، لن يكون إلا وجوداً فى الذهن أو حالة نفسية أو نوع من الوهم ، لدى هذا الفرد ، لذلك إن الحكم بوجود الطبيعة ، يعنى أن كل الناس لديهم القدرة على كشف نفس الظواهر الطبيعية ، وما عالم الظاهر الطبيعية ، إلا عالم التجربة الإنسانية المشتركة (٢) .

كذلك يلاحظ « رويس » أن الإعتقاد فى وجود الآخرين يسبق الإعتقاد فى وجود الطبيعة ، ولا يتم الإعتقاد فى وجودهم من المماثلة بين ما يحدث داخل الذات ، وما يقوم به الآخرون من أفعال فى « الخارج » تم الإستدلال على وجودهم ، وإنما الحقيقة أن « الذات » تعتقد أولاً ، وتعرف وجود الآخرين قبل أن تعرف نفسها ، أو معرفة ذاتها . فيعرف الفرد بوجود الآخرين ، وبوجود حياتهم الفكرية ، لأنهم يشكلون مصدراً لأفكاره ، ويحققون أهدافه الجزئية ، وطالما أن ما يحقق هدفاً ، يوصف بالواقعية والوجود فإن للآخرين وجوداً واقعياً (٣) . وتبين العلاقات الاجتماعية ، تعامل الأفراد مع وقائع مشتركة بينهم ، يستطيع كل فرد منهم ملاحظتها ، ويدرك عدم إنتمائها إلى ذاته أو للآخرين من بنى جنسه ، فهى عبارة عن أدوات مشتركة بينه وبين الآخرين ، يهتمون بها مثله ، ويساعده على تحقيق أهدافه فيها ، ولئن كان الفرد مع نمو الخبرة بمسائل الحياة يشعر بإستقلاله عن الآخرين ، إلا إن هذه الموضوعات الملاحظة ، تظل هناك بإعتبارها عالماً مشتركاً يظهر بينه وبين الآخرين ، ويربط حياته مع حياتهم . حقيقة قد تبدو العقول الفردية منفصلة ، ولكنها تكون

Ibid., p.168.

(١)

Ibid., p.170.

(٢)

Ibid., p.171.

(٣)

على علاقة بالموضوعات ، وتدرجها بإعتبارها مادة لها وجوها الخارجى المنفصل عنها ، حتى تصبح قادرة على الدخول فى علاقات مع بعضها البعض وذلك . يؤكد « رويس » وجود « الفرد » و « الأخر » و « الطبيعة » بينهما . فعندما تشرق الشمس مثلاً ، ويراه الفرد ساطعة ، فانه يدرك من العلاقات الاجتماعية ان الاخرين يرونها مثله ، وأن لها وجوداً مستقلاً عن الأفراد ، فتشرق الشمس مستقلة عن الأفراد ، بينما يكون شروقها ، أمراً يقبل التحقق من قبل أى فرد - لذلك تبدو الموضوعات المادية مشتركة بين الناس ، ومستقلة عنهم فى نفس الوقت ، وبأنها جزء من عالم الظواهر ، لا يحتاج لخبرة فردية تؤكد وجوده ، وفى نفس الوقت يتشابه كل الناس فى القدرة على الإتفاق على التحقق من وجوده (١) .

والحقيقة إن إقرار « رويس » بوجود هذا التشابه بين العقل والمادة ، أو بين الوعى الإنسانى والوعى الطبيعى ، يؤدي إلى إقتراب « رويس » من أنصار المذهب المادى الذين يصفون المادة أو الطبيعة بأنها تتميز بالقوة والتنوع والحركة والتفكير ، ولا يقرون بوجود جوهر روحى مستقل عن المادة ، كذلك يقرر « رويس » أن وعى الطبيعة يسعى لتحقيق المثل العليا ، ولا يقل فى الدرجة أو النوع عن الوعى الإنسانى ، إلا يمكن إن يكون وعى الطبيعة أشمل من وعى الإنسان ويحويه ؟ ألا يمكن إن يكون وعى الإنسان ما هو إلا صوره من صور الوعى الطبيعى ؟ حقيقة إن « رويس » قد فرق بين كلا النمطين من الوعى ، عن طريق الإختلاف فى طول المدة الزمنية للوعى ، أو للإدراك ، ولكن ما الذى يمنع أن يكون الوعى الانسانى ذاته جزءاً من وعى الطبيعة ؟ والحقيقة إن مثل ذلك القول قد يتسق مع فكر « رويس » ، فاذا كان « رويس » لا يقر القول بالخلق من العدم ، أو لا يصف الله بأنه « خالق » فإن الإنسان لن يكون الإنتاج الطبيعة ؟ وإذا كان لا وجود لطبيعة معينة أو لاواعية ، وإنما هناك حياة وكفاح (٢) . وإذا كان الماديون يعتبرون أن الصفات التى تنسب عادة لله ما هى إلا الصفات التى ينسبها الناس عادة للمادة فوصف الله بأنه أزلى ، فالمادة أزلية، ووصفه بأنه خالق، فمن المادة صنع كل شيء ، إلى آخر التأويلات التى يقدمها الماديون (٣) .

إلا يكون بذلك مذهب « رويس » الروحى الواحد المثالى ما هو إلا المذهب المادى ؟

Ibid., p.171.

(١)

Ibid., p.231.

(٢)

(٣) د . توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، دار النهضة العربية ، القاهرة من ٢٤٠ - ٢٤٥ .

ثانياً : الطبيعة المادية

أ - مفهوم الطبيعة

يرى « رويس » أنه من الضروري قبل وضع تعريف دقيق لمفهوم الطبيعة ، أنه لا بد من دراسة التعريفات الشائعة المختلفة لها . فأولاً هناك من يعرف الطبيعة بأنها كل ما يقع تحت دائره الحس ، وتدرسه العلوم التجريبية . والحقيقة إن مثل هذا التعريف ، لا يعد تعريفاً دقيقاً ، فلا معنى للمعرفة الحسية ، إلا إذا تم تنظيمها وتفسيرها فى ضوء نظرية معينة ، كذلك ما تقدمه العلوم التجريبية ، يكون عبارته عن مجرد فكره عن عالم موجود . وثانياً ، أحيانا ما يتم تعريف الطبيعة بوضعها فى مقابل العقل ، ويتم المقارنه بين العمليات العقلية والعمليات الطبيعية ، بعد الفصل بينهما ، والحقيقة ان الطبيعة وعملياتها ما هى الا تعبيراً عن عقل او عمليات عقلية . وهناك تعريف ثالث يضع الطبيعة فى مقابل الانسان ، وان كان من الواضح أن الإنسان يعد جزءاً من الطبيعة ، بل وفى نفس الوقت ، يعد مفهوم الطبيعة ذاته ، مفهوماً ومعتقداً انسانياً . ويعتبر تعريف رابع الطبيعة عالماً منفصلاً عن التجربة الشخصية ، ويضعها بين الإنسان والمطلق ، والحقيقة إن كل هذه التعريفات لا تخلو من التناقض ، وإذا كان هناك رغبة لمعرفة معنى الطبيعة أو المقصود بها ، فلا بد من البحث أولاً عن الدوافع التى أدت إلى إعراف الإنسان بوجود المادة ، وإلى الإعتقاد فى وجود قوانين للعمليات الطبيعية .

ولقد ظهرت عدة تفسيرات لمعرفة كيف توصل الإنسان لإدراك المادة ، منها ما رد تلك المعرفة الى الحس ، ومنها ما ردها إلى الأفكار الفطرية ، وهناك من ردها إلى الخبرة العلمية المنظمة ، واخيراً منها ما برر ادراك المادة بالاستناد إلى فكرة « المقاومة » . والحقيقة أن دراسة المعرفة الانسانية ، قد بينت إن ادراك المادة لا يتم عن طريق الحواس فقط ، أو عن طريق الأفكار النظرية ، فلا توضح الحواس الوجود الحقيقى للأشياء ، ولا وجود لأفكار

فطرية يدرك الإنسان بها المادة . كذلك لا تعد الخبرة العلمية المنظمة، ضمناً كافياً لوصف المادة بالوجود ، فموضوعية العلم ليست دليلاً على وجودها خارج العقل الانساني . أما تفسير نشأة الاعتقاد في وجود العالم الطبيعي ، من احساس الانسان بمقاومة الموضوعات المادية لارادته ، وأن طالما لكل معلول علة ، فالطبيعة المادية علة « المقاومة » التي تواجهها الارادة . عند تعاملها مع العالم (١) . فالحقيقة وبالرغم من تأكيد هذا التفسير عن وجود صلة بين الإرادة ووجود العالم ، إلا انه لا يؤكد من خلال تحقيق الاهداف الداخلية للارادة ، وإنما من خلال « المقاومة » للإرادة . كذلك يفترض التفسير مسبقاً صحة « مبدأ السببية » وانطباقه على عالم خارجي هناك . والواقع أن « مبدأ السببية » ، اذا ما تم تحليله ، فانه يعنى أن كل واقعة تحدث ، لا بد أن يتم تفسيرها من خلال علاقتها بالوقائع الاخرى . لذلك يرى « رويس » أن القول « بالمقاومة » ، يعنى أن « مبدأ السببية » يكون معروفاً بصورة مسبقة ، بأنه يحكم العالم الواقعي . ولكن إذا كان « مبدأ السببية » في حوزة الانسان بالفعل ، فإنه يستطيع استخدامه لتفسير أى واقعة يرغبها . ومعنى ذلك أن الانسان يكون قادراً على الاعتراف بوجود عالم خارجي هناك بعيداً عن أى خبرة « بالمقاومة » ، وأن هذا العالم يكون فيه « مبدأ السببية » صحيحاً . اذن لم يتم الاعتراف بوجود عالم واقعي من خلال « مقاومة » الإرادة ، وإنما افترض الانسان قبل الشعور او الاحساس بالمقاومة وجود هذا العالم خارج ذاته ، ويأن وقائمه مهما كانت ، فإنها تكون مرتبطة بقانون السببية وبتجربته الخاصة (٢) .

ويرى « رويس » أن الانسان إذا نظر نظره خاصه في باطنه لاعتقاده في مبدأ السببية ، لسوف يلاحظ أنه يساعد على فهم كثير من الحالات الفكرية بملاحظة الارتباطات والعلاقات السببية بينهم ، ويكتشف أن ملاحظه تلك الحالات ، ومعرفة العلاقات والارتباطات السببية بينهم ، قد ساعد علي تحقيق إرادته بصورة افضل ، عنها في حالة عدم وجود مبدأ السببية وأن الإرادة قد تجسدت بصورة أكثر وضوحاً بمعرفة هذه الارتباطات السببية داخل الفكر أو بين العمليات الفكرية . كذلك إذا تم إفتراض ، أن مثل هذه الارتباطات

J.Royce : The World and The Individual p. II p. 161

(١)

Ibid., p. 162.

(٢)

والعلاقات السببية ، تكون صادقة خارج نطاق العقل الانساني ، اى تكون كائنه فى عالم خارجى هناك ، فإن الانسان يكون قد بدأ تعريف هذا العالم ، ليس بوصفه عالماً يقاوم الإرادة، وانما باعتباره عالماً يجسد أحد الأهداف العقلية الهامه والعميقة (١) ، فاذا قيل ان العالم الخارجى مادى ، فانه تبعاً لهذا الفرض ، يكون من الناحية السببية مفسراً للوقائع الجزئية التى تظهر فى حياة الانسان وتجربته ، وبذلك يكون العالم الخارجى عبارة عن تجسيد واقعى لهدف يظهر داخل الانسان . إن الفحص الدقيق للقول بالإحساس بالمقاومة كتفسير لنشأة الاعتقاد فى وجود العالم الخارجى ، يبين أنها صورة صور المثالية ، وأنها تؤكد أن طبيعة الأشياء عقلية ، وأن الاشياء والوقائع الخارجية ما هى إلا تحقيقاً لاهداف عقلية. لذلك يرى « رويس » أن حل مسأله الاعتقاد فى وجود الطبيعة ، لا بد وأن تحل فى ضوء « المفهوم الرابع للوجود » ، فاذا إراد الانسان أن يفهم ماذا يعنى بالطبيعة ، ولماذا يعتقد فى وجودها ؟ يجب أن يسأل أولاً : ما هو الهدف الباطنى الذى يكون لدى الإنسان ، ويتطلب هذا التجسد ، والذى يبدو للعقل الانساني ، بأن وجود الطبيعة الخارجية فقط ، او الاعتراف بوجود المادة الخارجية ، يستطيع تحقيق هذا التجسد لهذا الهدف (٢) .

ب - صفات العالم المادى :

اذا كانت الطبيعة الخارجيه تحقيقاً لهدف ولارادة معينة ، وكان الحكم بوجودها مرتبطاً بالوعى الإجتماعى ، فمن أين جاء الفصل بين الطبيعة المادية والحياة الباطنية للإنسان ؟ فلقد بات واضحاً أن الانسان ينظر للعالم المادى ، كشىء مختلف عن العقل ، ويتصف بالالية وثبات القوانين ؟ يجيب « رويس » بأن الحياة الإجتماعية الإنسانية تعد المسئولة عن هذا الانتباه للتباين بين الأفراد والاشياء . فلم تظهر الفجوة وإتساع الهوة بين العقول والاشياء المادية من تجارب انسانية معينة ، أو من تجارب الإنسان الخاصة ، وإنما بسبب العمليات الإجتماعية ، ومن خلال تعامل الإنسان مع الأفراد الآخرين من بنى جنسه من جهة ، ومن التعامل مع الاشياء من جهة أخرى . فمع تطور الإنسان ، ونمو الوعى الخلقى وإنتظامه ،

Ibid., p. 163.

(١)

Ibid., p. 165.

(٢)

وزيادة سيطرة الإنسان على الموضوعات الطبيعية ، بدأ الإنسان يدرك الانفصال بين العقول والاشياء . ومع زيادة النمو الحضارى ، واكتساب الإنسان للثقة فى قدرته على تحقيق اهدافه بالعلم والفنون ، بدأ يزداد احساسه بوجود الافراد من بنى جنسه ، باعتبارهم كائنات حية ، تتشابه إرادتهم واهتماماتهم ، بالرغم مما قد يكون ظاهراً من خلافات واختلافات إجتماعية بينهم. وترتب على ذلك الإحساس ، أن الانسان بدأ يسلك فى نسق منظم من الإستجابات لبينة إنسانية يعترف بمعقوليتها ، ويعتبرها كلاً منظماً ، وبذلك بدأ يظهر النظام الإجتماعى . ثم مع التطور بدأ الانسان المتحضر ينسب للعالم الطبيعى نفس العلاقات العامة التى نسبها للنظام الإجتماعى . فعندما حاول الافراد تحقيق التعاون أتجهوا الى توحيد الكثرة فى خبراتهم ، وحددوا وميزوا فى عالم الطبيعة ، الموضوعات التى يمكن الاتفاق عليها ، باعتبارها أسساً لافعال تعاونية محددة . لأنهم من خلال العلاقات المشتركة بالظواهر الطبيعية ، يمكنهم التعبير عن مقاصدهم وخطط أفعالهم بصورة إجتماعية مفهومة (١). ولم يعد ينظر للطبيعة بوصفها موضوعاً بين كائنين إجتماعيين ، وإنما باعتبارها مستقلة وغريبة عن كل الافراد ، ويات تفسير ظواهرها يتم من خلال مقولات عقلية مثل اكتشاف البنية ، والبحث عن الموضوعات الوسيطة ، والمقارنة بين خبرات الافراد وتجاربهم ، فاصبح ما يتم خضوعه للتجربة الإنسانية العامة ، لقوانين محددة ويتصف بالثبات ، هو ما يسمى « بالطبيعة » .

السؤال الذى يفرض نفسه الآن ، إذا كان الإنسان يدرك العالم الطبيعى ، كموضوع قابل « للوصف » ، وتحقق لخبرة مشتركة، فمن أين يدرك الطبيعة بوصفها خاضعة للسببية ولقوانين ثابتة ، بينما لاتوضح التجربة الانسانية ، الإحالات جزئية من الظواهر الطبيعية ؟ ويرى « رويس » أنه قد تتم إجابته هذا التساؤل ، بأن دراسة أى سلسلة منتظمة من الأحداث ، يتضمن ملاحظة بعض الملامح الثابتة خلال تحولات وإنتقالات الاحداث ، وبذلك يمكن وضع قانون ثابت للتابع . ولكن الحكم بوجود روابط سببية ، يتضمن فى الحقيقة اكثر من ذلك لانه يعنى حدوث نفس العلاقات بين الاحداث ونتائجها فى أزمنة وأماكن مختلفة ،

Ibid., p. 148.

(١)

وذلك يتطلب أكثر من مجرد ملاحظة التسلسل المنتظم للإحداثيات . إذن المسألة ليست مجرد ملاحظة « التابع » ، وإنما أصبحت المسألة تتعلق « بالثبات » ، وبذلك يتحول التساؤل عن لماذا يدرك الانسان ، أن الانتقال فى الزمان والمكان ، لا يؤثر على القوانين الصحيحة للطبيعة (١) ؟ الحقيقة أن اكتشاف ثبات قوانين الطبيعة ، لا يعد بديهية واضحة بذاتها ، وليس نتيجة احكام تجريبية ، وإنما استمد وصف قوانين الطبيعة « بالثبات » قيمته من العلاقات والإهتمامات الإجتماعية ، ومن الاهمية والقيمة الإجتماعية لاكتشاف اتساق القوانين . حقيقة يتم إكتشاف القوانين وثباتها فى الطبيعة ، ويمكن التحقق منهم فيها ، وفى خضوع ظواهرها لتلك القوانين ، ولكن لا يعود هذا الإكتشاف إلى إى افكار فطرية ، او الى مبدأ اولسى فى العقل ، وإنما أدركه الإنسان بسبب نوافع إجتماعية ، وإهتم به واعتبر « ثبات » القوانين كما لو كان صفة عامة للطبيعة الموضوعية (٢).

والحقيقة أنه من السهل عند تتبع ظهور مفهوم « الطبيعة » فى تاريخ الفكر الانسانى، ادراك تأثير النوافع الاجتماعية ، بالنسبة للصفات التى نسبها هذا الفكر الانسانى للعالم الطبيعى . ففى البداية لم يكن لدى الانسان البدائى أى فكرة فطرية عن ثبات قوانين الطبيعة ، وكانت الفنون الصناعية والتجارة والعادات الاجتماعية ، المصادر الثلاثة الأساسية لاهتمام الانسان ، بثبات القوانين . فالفنون مثلاً تتطلب ثبات صفات المعادن والحجارة ، والا إستحالة تعلمها ، وإنتقالها من جيل إلى جيل ، فبحث الانسان عن مواد تناسب فنونه ، وذات صفات ثابتة نسبياً فى الزمان ، وأدى الاكتشاف « للثبات النسبى » لهذه الموضوعات والمتحقق منه إجتماعيا ، الى الاعتراف « بالثبات » كحقيقة موضوعية . كذلك أدى حسم الخلافات التجارية باستخدام المقاييس والأوزان ، الى ملاحظة الصفات الثابتة لموضوعات القياس ، وإلى ظهور فكرة جديدة عن الطبيعة وموضوعاتها ، شكلت فيما بعد كل أسس العلوم الكمية . كما ادت العادات الاجتماعية المتصلة بالمناسبات الاجتماعية وأوقات الحصاد ، الى البحث عن ظاهرة طبيعية مشتركة ، يتم بها تنظيم أوقاتها ، فظهر القانون الطبيعى للسماء . ومع ظهور العلوم الخاصة تحررت مفهوم « ثبات » القوانين من النوافع

Ibid., p. 190.

(١)

Ibid., p. 194.

(٢)

العملية والإجتماعية ، وفرض نفسه كبدئية واضحة بذاتها على الفكر الحديث ، بينما أصله كان عملياً وإجتماعياً (١) ،

إن أى تفسير للطبيعة وصفاتها ، لا بد أن يدرك أن الفصل بين المادة والعقل ، قد نشأ من دوافع إجتماعية معينة ، وإذا كان نجاح التصورات العملية الحديثة ، قد أدى الى النظرة الآلية للطبيعة ، وإلى إعتبار أن المادة والعقل كائنان منفصلان ومتباينان ، فإن اصل هذا التباين ، يكمن فى رؤية الانسان لوقائع الخبرة ، وفى اهتمامه بالتنظيم الإجتماعى ، وإذا كانت الفنون الصناعية القديمة قد نظرت لوقائع الطبيعة كمجرد أدوات ، لا حياة فيها ، وأنها وجدت لتحقيق غايات الانسان ، وإتجهت العلوم الحديثة إلى إعتبار الوقائع الطبيعية مجرد تجسيدات لمجموعة من التصورات والمعادلات وليس لها قيمة باطنية أو هدف ، فإن كلا من الفنون القديمة والعلوم الحديثة ، مجرد تعبيرات عن نظرة الانسان للطبيعة ولا تقدم هذه الفنون وتلك العلوم تفسيراً حقيقياً للطبيعة . فالتجارب والخبرات الطبيعية مجرد لمحة من عالم أوسع ، هدف أكبر ، يكون الانسان جزءاً منه ، وتحقق فيه الوحدة النهائية مع الله (٢) .

ج - التفسيرات العلمية للطبيعة

إذا كان إعتقاد الانسان فى وجود الطبيعة والفصل بين المادة والعقل قد نشأ بسبب دوافع إجتماعية وإنسانية ، فهل يمكن أن تؤدى نظرة أعمق للطبيعة ذاتها الى الغاء هذا الفصل ، وإلى اكتشاف وجود صلة عميقة ، بين الطبيعة أو المادة أو ما يبدو خارجياً والوعى الانسانى ؟ يجيب « رويس » على هذا التساؤل بأن الطبيعة تظهر للانسان مكونة من عالمين . عالم مادى ثابت محكوم بقوانين ثابتة نسبياً ، وعالم باطنى أو عالم الوعى ، وهو عالم متغير ، ولا تتشابه وقائعه أو صفاته مع العالم المادى . ويعد توضيح مذهب التطور ، ولامكانية عبور الفجوة بين العالمين ، حاول الفلاسفة البحث عن الرابطة التى يمكن ان يتم التوحيد بها بين العالمين . فظهر الإتجاه نحو التوحيد بين العقل والمادة ، برد العقل إلى

Ibid., p. 178

Ibid., p. 204.

(١)

(٢)

المادة ، واعتباره مظهراً لها ، وذلك بحجة ان المادة لها قوانينها الثابتة والواضحة ، والعقل مجهول وغامض . الا أن هذا التجاه ، قد أدى الى نتيجة عكسية الى حد ما ، اذ قد بدأ يلفت الانتباه الى المادة والى البحث عن صحة الصفات المنسوبة اليها ، وما اذا كانت هذه الصفات حقيقة ونهائية . فإذا ما ظهر أن ثبات المادة مجرد وهم ، وتم افتراض وجود عمليات طبيعية شبيهة بالعمليات العقلية ، الا يكون ما يسمى مادة ما هو الا مظهراً لما يسمى عقلاً ؟ واذا ما ثبت صحة هذا الفرض ، وإكتشاف أساس تجريبي له ، الا يؤدي ذلك الى معرفة حقيقته بطبيعة الأشياء (١) ؟

حقيقة ان العلم لا يدعى الوصول الى معرفة بالطبيعة الباطنية للأشياء ، ويكفى بوصف الظواهر الطبيعية ، ومعرفة القوانين التي تخضع لها ، ودائماً ما يصبح السؤال عن مدى معرفة العلوم او العلم بالطبيعة العميقة للأشياء ، سؤالاً عن مدى اتفاق قوانين العلم مع الوقائع الطبيعية ، المنفصلة عن الانسان . ولذلك لا تقدم قوانين العلم اى تقارير صحية عن الاشياء كما يلاحظها الإنسان ، وإنما هى عبارة عن أنماط ونماذج فكرية ، وجدها العلم مقنعة لتحقيق أو لتقسيم وصف نظرى مختصر لخبرات متعددة . فلا يستطيع الانسان مثلاً ، ملاحظة النظرية الذرية وقوانينها ، ولم يلاحظ فرد ما مثلاً « الذرة » أو موجاتها ، لأنها عبارة عن موضوعات فكرية أو بناءات صورية فكرية ، تمكن الإنسان من تليخيص اكبر قدر من الوقائع . كذلك لم يتحقق احد من قانون الجاذبية تحققاً مباشراً ، فقط يلاحظ الفرد سقوط الاشياء ، او يتنبأ او يتحقق ، ولكنه لا يلاحظ مباشرة الصيغة الفكرية المسماة بالجاذبية . فكل ما هناك ان هذه الصيغة قد مكنت من تليخيص مجموعة من الظواهر . لذلك فقوانين الطبيعة عبارة عن « بناءات فكرية » ، يستخدمها العلم لحفظ التفسيرات الانسانية للواقع . ويكون صدق هذه القوانين ، مشابه لصدق السجلات التجارية . ولا تعبر عن اى حقيقة نهائية للظواهر الملاحظة أو لمسالك الطبيعة (٢) .

الا ان « رويس » يرى أن هناك نمطاً ثانياً من القوانين العلمية ، يتناقض ويختلف عن نمط القوانين الصورية والبناءات الفكرية ، وهذا النمط الثانى عبارة عن « تعميمات » ، تتعلق

Ibid., p. 215

(١)

Ibid., p. 216.

(2)

بوصف الظواهر الطبيعية ، ويشترك الفهم العام مع العلم فى ملاحظها ووضعها . فمثلاً القانون القائل ، « بأن الكائن الحى ينمو ولا يصغر» أى قانون العمليات التى لا تعكس ، ويشترك الفهم العام مع العلم فى ملاحظته فى الطبيعة وعبر عنه العلم بقانون تحول أو انتقال المادة من صورة الى اخرى ، وعدم عودتها الى حالتها الاولى . لذلك « العمليات اللاعكسية » هى الصفات الحققة للعالم الطبيعى . ويوافق عليها العلم وحكم الخبرة الاجتماعية . حقيقة قد لا يدرك الانسان بها ، الحقيقة الباطنية للطبيعة ، ولكنه يستطيع ان يعرف منها السلوك الصحيح للظواهر الطبيعية (١) .

ويرى « رويس » أن هذا النمط من القوانين ، يختلف عن النمط الأول اختلافاً يصل الى درجة التباين . فالأول يخص العلم وحده ، بينما يشترك فى النمط الثانى العلم والفهم العام النوع الأول من القوانين ، عبارة عن تلخيص لخبرات عديدة فى صورة معادلات رياضية يمسك بها العلم حساباته ، وتدرك وتتنظر للعالم الطبيعى كما لو كان قابلاً للملاحظة ، بينما هى نفسها ، غير قابلة للملاحظة ، ولذلك قد يستبدلها العلم بقوانين أخرى جديدة . وأما النمط الثانى من القوانين ، عن العمليات التى « لا تقبل العكس » أو الالغاء ، فإنها تصف وتوضح بصوره مباشرة الظواهر الطبيعية بالفعل ، ويمكن ملاحظتها . كذلك يلاحظ ان بينما يودى النمط الاول الى تأكيد الفصل بين المادة والعقل ، لأنه يتعلق بالمادة ، فإن النمط الثانى ، تشترك فيه المادة والعقل ، وينطبق على العالم الطبيعى والعالم الاخلاقى . اذ يمكن تطبيق قوانين النمط الثانى على العمليات الفكرية والعمليات الطبيعية وعلى صور الطاقة وعلى وقائع العالم الاخلاقى ، فاعمال الإنسان وافعاله التى لا تلتفى ، تعتبر حالة من حالات قانون العمليات الطبيعية التى لا تعكس . لذلك يرى « رويس » أن هذا النوع الثانى من القوانين التى يشترك فيها العلم ، الفهم العام ، ينطبق على الظواهر المادية والظواهر العقلية . وإذا ما تم التمييز بين البناءات النظرية للعلم ، والقوانين والتصميمات التى تتناول الظواهر الطبيعية المباشرة ، والقابلة للتحقق المباشر بالخبرة ، فان التباين بين المادة والعقل يختفى ، او يظهر أقل مما كان متصوراً (٢) .

Ibid., p. 217.

(١)

Ibid., p. 219.

(٢)

بعد هذا العرض لتفسير « رويس » للطبيعة ، من الواضح أنه يجعل الحضارة ونمو الوعي الاجتماعى مسئولاً عن الفصل بين المادة والعقل ، واعتمد فى هذا التعليل للفصل على تشبيهها لإنسان البدائى بالطفل، وتشبية مرحلته الحضارية ومرحلة الطفولة ، التى تكون الاشياء مختلطة فيها ، فلا يستطيع الطفل التمييز بين جسده والاشياء او ما يخصه وما يخص الخارج . ومع نمو الوعي الإجتماعى لدى الطفل يبدأ فى التمييز والفصل بين ما هو مادى وما هو عقلى . وينفس المنطق ينظر « رويس » للوعي الحضارى ويرى أن كلما زاد الوعي الحضارى زادت النظرة المادية من جهة والعاطفة الإنسانية من جهة أخرى ، وبالتالي ظهر الفصل الشديد بين الماده والعقل ، أو بين الطبيعة والانسان . والحقيقة أن « رويس » لم عتمد على تقرير هذا الفصل بين المادة والعقل ، على تاريخ الفلسفة او على عرض لتاريخ الثنائية ، كما ظهرت عند « ديكارت » ، وإنما اعتمد على علم النفس ، وأقر الفصل بين المادة والعقل ، وحاول رده الى نفس النظرة الاجتماعية ، التى أدت بالإنسان للاعتراف بوجود الطبيعة (١) . اذ يرى ان نفس الدوافع الإجتماعية التى ادت بالإنسان للاعتراف بوجود المادة ، هى التى ادت إلى الاعتقاد فى الفصل بين المادة والعقل ، وبذلك تصبح العلاقات الاجتماعية ، ونموها ، وتطور الوعي الإجتماعى ، مسئولاً عن اتساع الهوة بين عالم العقل وعالم المادة . ومن الواضح من هذا التحليل لوجود الفصل بين العالمين ، اعتماد « رويس » على علم النفس ، خاصة علم نفس النمو ، وتتبع مراحل نمو الوعي الاجتماعى ، وبذلك ترتد دراسة العالم الطبيعى لدراسة الوعي الاجتماعى أولاً ، ثم لدراسة الوعي النفسى الانسانى الفردى ثانياً . وبذلك يظل « رويس » فى دائره المثاليين ، وتصبح دراسة الطبيعة دراسة للوعي الانسانى .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، ألم يكن هناك قبل هذه الطفرة الحضارية للوعي ، والتى يعدها « رويس » مسئولاً عن إتساع الهوة بين الموضوعات المادية وعالم العقول ، تمييزاً وفصلاً بين ما هو مادى وما هو عقلى ؟ أكان الانسان فى العصور القديمة ، لا يفصل بين الأفراد والموضوعات المادية ؟ والحقيقة ان ربما كان انسان الماضى ينظر للطبيعة

Ibid., p. 175.

(١)

نظرة تشخيصية ، فيصيفها بصفاتهِ وإنفعالاتهِ ، إلا أنه كان يفعل ذلك بالنسبة للظواهر التي لا يجد تفسيراً لها ، ولا يعنى ذلك أنه كان يوحد بين العقل والمادة ، أو الأفراد والجماد ، لأن ذلك لا يستقيم مع التجربة ، أو أبسط مبادئ الاستدلال . . ويغض النظر عن حرص « رويس » فى إستخدام عبارهِ إستِماع الفجوة بين العقل والموضوعات المادية ، ونسبته هذا الإستِماع لإنسان العلم والحضاره (١) ، إلا أن ذلك لا يعنى أن إنسان الماضى كان يوحد بينهما تماماً ، مثلما يوحد الطفل بين جسده والأشياء المادية ، فإنسان الماضى كان ينسب عقلاً أو روحاً أو حياة باطنية لما غمض وإستعصى عليه فهمه من الظواهر الطبيعية . كذلك ولئن كان العلم قد سلب عن الطبيعة تلك الصفات الإنسانية أو الإلهية ، نسبها للإنسان البدائى إليها ، فإنه أيضاً قد سلب الطبيعة صفاتها المادية ، والتي أكدها العصر الحديث للطبيعة ، فلقد تم تحليل المادة ، وتحللت إلى الكترونات وأصبحت لا تخضع لميدان اللمس أو البصر ، ذلك الميدان الذى بنى عليه « رويس » نظريته فى إدراك الإنسان للأشياء ، فى عالم اللمس والبصر ، بوصفها موضوعات لخبرة مشتركة . ربما إذا لم ينسب « رويس » إلى العلم مسئولية إستِماع الفجوة بين العقل والمادة لإستقامة النظرية ، وكانت العلاقات الإجتماعية مسئولة عن ذلك الفصل والتمييز ، ولكن إعتبار العلم مسئول عنه ، فذلك أمر يتناقض مع العلم الحديث ، الذى أفقد المادة صلابتها وحولها الى ذرات والكترونات ، وبذلك يمكن إعتبار العلم مسئولاً أيضاً عن إلغاء الفصل بين ما هو مادى وما هو عقلى . ويلاحظ عند تناول « رويس » لمسألة الفصل بين جانبى الطبيعة ، أنه يقصد العقل والمادة ، وأحياناً يقصد العالم الإجتماعى والعالم المادى ، أى وجود الأفراد ووجود الأشياء ، وأحياناً يقصد الروح والمادة لذلك من الواضح أنه يقصد بالطبيعة «العالم » أو الكون ، ولكن يلاحظ انه يستخدم كلمة « الطبيعة » أحياناً أخرى للإشارة إلى الأشياء المادية فقط أو إلى الجماد ، وبالتالي تصبح كلمة « الطبيعة » مرادفة لكلمة « المادى » أو العالم الطبيعى هو العالم المادى فقط ، ومنفصل عن العالم الإجتماعى أو الأفراد . وفى موضع ثالث يستخدم كلمة « الطبيعة » للإشارة الى « عالم الوصف » فى مقابل « عالم التقدير » أو عالم العقول ،

Ibid., p. 175.

(١)

والحقيقة أن هذا الإستخدام الغامض لمصطلح الطبيعة ، يؤدي الى صعوبة الفهم الواضح للمعنى الواضح للمعنى .

والحقيقة أن تفسير « رويس » للطبيعة تفسير تقليدى ، أو ليس جديداً فى تاريخ الفكر الفلسفى . فإذا كان « أفلاطون » قد قال بعالم الظاهر والباطن ، وقال « كانط » ، بالأشياء كما تبون لنا ، وعالم الأشياء فى ذاتها ، فإن « رويس » قد بنى نظرتة للطبيعة على تلك النظرة الثنائية ، فهناك الطبيعة كما يدرسها العلم أو عالم الوصف ، وهناك الحقيقة الباطنية للأشياء ، والتي إعتبرها « رويس » خارج نطاق المعرفة المباشرة العادية أو المعرفة العلمية ، وكان « رويس » يقر بالثنائية الكانطية ، وبدلاً من القول بعالم الأشياء فى ذاتها أو العالم الخفى وراء الظاهر ، قال بوجود وعى محدود وراء أحداث الطبيعة (١) . وإذا كان « أفلاطون » يعتبر المثال أساس الواقع ، ويرى « كانط » أن عالم الأشياء فى ذاتها أساس الظاهر ، فإن « رويس » قد إعتبر الوعى وراء أحداث الطبيعة ، فأحداث الطبيعة ، تعبر عن وعى يشابه الوعى الإنسانى ، ويشير إلى وعى آخر أوسع منه يشمل مع الوعى الإنسانى (٢) ، ويتفق تفسير « رويس » للطبيعة مع فكر « شلنج » ، فالطبيعة ما هى إلا تعبيراً عن وعى ، وهناك مصدر واحد للأنا وللأنا (٣) . حقيقة لم يقل « رويس » بمبدأ الهوية « أو وحدة الأنا والطبيعة ، وإنما جاء تفسيره للطبيعة إثباتاً لمعقوليتها ، ولوجود وعى ورائها يشابه الوعى الإنسانى ، وكلاهما يدلان على وجود عقل مطلق ورائهما . وبذلك يشارك رويس المثاليين الألمان فى محاولة حل الإشكالية الكانطية ، والمتمثلة فى الفصل بين النظرى والعملى ، أو فى القول بوجود عالمين . كما تتفق نظرية « رويس » للطبيعة فى كثير من جوانبها مع آراء « شارلز بيرس » فى إعتبار أن الطبيعة قد ظهرت نتيجة إتفاق الأفراد والجماعات ، وماهى لإعلامات ضرورية لقيام العلاقات الإجتماعية (٤) . وبذلك تبو نظرية « رويس » فى الطبيعة ما هى إلا صورة من صور محاولات للتوفيق بين المثالية الألمانية والبراجماتية . وإن كانت تنور فى إطار المثالية .

J.Royce : The World and The Individual , p.11p. 228

(١)

Ibid., p. 231.

(٢)

F.Copleston , S.J. : A History of Philosophy , Schelling Vol.7, pl.129

(٣)

Ibid. Vol. 8, p. 11, p. 70.

(٤)

ويأتى تفسير « رويس » للطبيعة متفقاً ومسايراً لنظرية التطور ، والمحاولات الفلسفية التى نتجت عنها . ولحل إشكالية الفصل بين المادة والعقل ، طالما أن الإنسان نتاج الطبيعة ، فلقد إعتبر « رويس » أن عالم المادة وعالم الأفراد أو العقول عنصران أساسيان ، وحاول بيان النشأة الإجتماعية لمفهوم الطبيعة ، والصلة بين الواقع الطبيعى والإجتماعى ، وإعتبر أن نمو الوعى الإجتماعى والعلمى ، يعد مسئولاً عن الإتجاه للفصل بين ما هو مادى وما هو عقى . وحاول توضيح الصفات المشتركة بين ما يسمى عقلاً وما يسمى مادة ، مثل إتفاقيهما فى وجود « عادات » ، « وقوانين » مشتركة بينهما ، وهناك وعى طبيعى مثل الوعى الإنسانى ، ورد الفرق بين هذين النمطين من الوعى الى ما يسمى بطول الفترة أو المدة الزمنية للإدراك (١) . لم يتجة « رويس » إلى رد أحد العنصرين إلى الآخر ، أو أن المادة ما هى إلا إحساسات ، والعقل ما هو إلا مجموعة أفكار وصور ذهنية . وإنما إعترف بوجود الأشياء ووجود الأفراد ، فالثنائية قائمة ، ولكنه حاول تفسير نشأتها وعبور الفجوة بينهما . والحقيقة أن التفسير الذى إنتهى إليه « رويس » لم يحل إشكالية الفصل تماماً ، فالمادة والعقل كيانان منفصلان ، والإستدلال على وجود « وعى » وراء الظواهر الطبيعية ، ما هو إلا ترديد لنظرة الإنسان البدائى للطبيعة ، وإن كان الإستدلال عند « رويس » إستدلالاً منطقياً محكماً .

ومع ذلك السؤال الذى يفرض نفسه الآن ، لماذا إهتم « رويس » بتفسير الطبيعة ، أو وضع فلسفة لها ؟ الحقيقة أنه يمكن تقديم إجابتين لهذا التساؤل . الأولى منها ، أن تفسير الطبيعة خاصة فى ضوء نظرية التطور ، كان من المسائل التى تلعب دوراً رئيساً فى الصراع بين الدين والفلسفة . فلقد بات واضحاً وجود تعارض بين نتائج نظرية التطور ، والعقائد الدينية التقليدية - التى تجعل للإنسان أصلاً مختلفاً عن الأصل الطبيعى ، وبذلك سعى « رويس » بتفسيره للطبيعة ، إلى وضع نظرية ، تبين فى النهاية وجود وعى وراء الأجسام مثلما هناك وعى وراء أجساد الأفراد ، وكلا النمطين من الوعى يشيران إلى وجود وعى

J.Royce : The World and The Individual p.II p. 240.

(١)

أشمل منها (١) . وبالتالي يمكن تفسير محاولته لوضع نظرية فى الطبيعة ، بأنه كان يهدف إلى التوفيق بين الدين والفلسفة . وإلى تأكيد وجود حقيقة روحية ، وإن كان الطريق إليها فلسفياً . وأما الإجابة الثانية فلقد كان « رويس » مدركاً ، إهمال الفلسفات المثالية - حسب وجهة نظره - لفلسفة الطبيعة فإتجه إلى وضع تفسير لها . والحقيقة أن ما يؤكد هذه الإجابة ، أن « رويس » قد بدأ قبل تفسيره للطبيعة ، بوضع مفهوم مثالى للوجود ، أو ما أطلق عليه إسم المفهوم الرابع للوجود ، ثم إتجه إلى وضع تفسير للطبيعة يتسق مع هذا المفهوم ، بل ومهد لذلك بتوضيح إستحاله تفسير الطبيعة تفسيراً صحيحاً فى ضوء أى مفهوم آخر للوجود (٢) ، وكأنه يحاول أن يؤكد أن الفلسفة المثالية ، قادرة على وضع فلسفة للطبيعة . كذلك وما يؤكد دفاعه عن المثالية ، أنه إعتبر مشكلة الفصل بين المادة والعقل ، المشكلة الأساسية الجديرة بالمعالجة والبحث عن أصلها ، لأنها غالباً ما تمثل عقبة أمام الفكر المثالى ، خاصة مسألة الصلة مع المادة من جانب الفكر .

كما تظهر محاولة التوفيق بين الدين والعلم بصورة خاصة والدين والفلسفة بصورة عامة فى إعتقاد « رويس » على نظريات « علم النفس » وعلى الآراء الفلسفية القائمه على هذه النظريات ، فكما أن للأفراد نفساً وإرادة وراء السلوك الظاهرى ، فإن للطبيعة أيضاً وعياً وإرادة وراء ظواهرها البادية والمتغيرة . وإذا كان « علم النفس » قد قدم تفسيراً لكيفية نمو الوعى الذاتى ، والوعى الإجتماعى ، فإنه قادر على تفسير الطبيعة والوعى الطبيعى . بذلك ومن منظور التوفيق بين الدين والعلم ، فإن علم النفس قد يصبح بديلاً للوحى ، ويميل التوفيق هنا إلى جانب العلم أكثر من جانب الدين ويتجه الى إعلاء شأن الإنسان ، فى العلاقة بينه وبين الله . وذلك طالما أن العلم إختراع إنسانى . فإذا كان الدين التقليدى يقدم تفسيراً للعالم ، فعلم النفس قادر على تفسير الطبيعة ، وبذلك يصبح الدين الروحى أو النفسى بدلا من الدين العقائدى . ودين الداخل بدلاً من دين الخارج . والحقيقة أن إستبدال علم النفس بالوحى ، يتسق مع موقف « رويس » فى رده كل شىء إلى الحاجة الإنسانية والوعى الذاتى الانسانى . فكل شىء إشباع لحاجة إنسانية ، وكل معرفة تبدأ

Ibid., p. 228.

(١)

Ibid., p. 198.

(٢)

بمراقبة الوعى الذاتى . فإذا كان الله مصدر الوعى ، فالإنسان مصدر علم النفس . وإن كان « الوعى » قادراً على تفسير الطبيعة ، فإن علم النفس لديه نفس المقدره ، وتلك النظرة تعلق من شأن الإنسان ، فلا يحتاج إلى معرفة من الخارج ، أو لوعى يمد به المعارف . فالفلسفة قادرة على معرفة الحقيقة الدينية ، وعلم النفس قادر على تحليل أنماط الوجود ومعرفة المطلق .

من جهة أخرى يلاحظ أن التوفيق قد يميل إلى جهة الدين ، وخصوصاً تجاه الدين المسيحى ، فمحاولة تفسير الطبيعة ، وإثبات وجود وعى وراثى ، يشابه الوعى الإنسانى ، محاولة تستند على الماثلة ، أو بلفه « أفلاطون » على الإيمان بوجود « المشاركة » . فالواقع أن فكرة الماثلة بين الوعى الإنسانى والوعى الطبيعى ، تقوم على الإيمان المسبق بفكرة الماثلة بين الله والإنسان ، وفكرة « الماثلة » فكرة مسيحية فى أساسها ، بل لقد اعتمد عليها أيضاً القديس « توما الإكرونى » لمعرفة صفات الله (١) . كذلك يقول الله « فتكونون قديسين لأنى أنا قدوس » (٢) ، « فخلق الله الإنسان على صورته » وعلى صورة الله خلقه (٣) ، ونعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا (٤) ، ففكرة الماثلة التى اعتمد عليها « رويس » فى تأكيد وجود وعى للطبيعة ، مشابه لوعى الإنسان ، وإن اختلف معه فى طول المدة الزمنية للإدراك ، تعد فكرة مسيحية . كذلك إن افتراض وجود وعى للطبيعة ، يفرق عن الوعى الإنسانى فى طول المدة الزمنية للإدراك ، وقد يكون أرقى من الوعى الإنسانى ، بسبب طول مدته الزمنية عن الوعى الإنسانى ، يعد تصوراً دينياً ، لأنه يعطى الأفضلية لهذا الوعى الطبيعى ، وإن كان رويس قد ميز بين الوعى الطبيعى والوعى الإنسانى ، إلا أنه من الممكن اعتبار الوعى الطبيعى شامل للوعى الإنسانى بصورة ما ، وذلك طالما أن الإنسان جزء أو نتاج الطبيعة ، وطالما أن « رويس » يستخدم أحياناً حكمة الطبيعة بمعنى العالم .

وأما بالنسبة لتفسير « رويس » لنشأة الطبيعة ، وتجنب القول « بالخلق » ، أو إنها مخلوقة من العدم ، ومحاولة تفسير ظهور الأشياء تفسيراً يتسق مع نظرية التطور، وابتعد

(١) اتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ترجمه امام عبد الفتاح ص ١٤٣

(٢) سفر اللاويين : ١١ : ٤٥

(٣) سفر التكوين : ١ : ٢٨

(٤) سفر التكوين : ١ : ٢٨

عن القول بالعدم . فإنه جاء متسقاً مع موقف بعض فلاسفة الدين المسيحيين ، من تفسير نشأة الكون ، والإتجاه إلى القول بأزلية أو قدم العالم ، تنادياً لإشكالات القول « بالخلق » . فإذا كان الله يقول لموسى « أهية الذى أهية » (١) ، أو أكون ما أكون ، فيدل الوجود على ما هية الله ، فإنه يقول فى عبارة أخرى « أنى أنا الرب لا أنتغير » (٢) . وإذا كان فى البدء خلق السموات والأرض (٣) ، فإن الله يذكر فى هذه الآية الأولى من العهد القديم فعل الخلق ، تماماً مثلما يؤكد وجوده بقوله « أكون ما أكون » ، فإذا كان الله هو الوجود وحده ، فعندئذ كل ما عدا الله ، لا بد أن يستمد وجوده ، بالضرورة من الله ، أى من الواضح أن الله يهب للكون كل شىء ما عدا الوجود نفسه (٤) . بمعنى إذا كان الله هو الوجود ، فكيف يمكن أن يكون هناك شىء غيره ، كيف يخلق الله العالم وهو الوجود (٥) . لذلك إذا كانت المادة فى نظر « رويس » تعبر عن وعى وراثتها ، فلا بداية ولا نهاية لعالم الطبيعة . وإذا كان وجود الأفراد والأجسام المادية تعبيراً عن وعى ، معنى ذلك استحالة القول بخلقهم من العدم ، لأن معنى ذلك أن الوعى كان موجوداً بون تجسيد أو تعبير . وإذا كانت « العادة » والتكرار يؤديا الى ظهور الجدة باستمرار ، وتتشابه عمليات الوعى الإنسانى والطبيعى ، وما يحدث فى الداخل يحدث فى الخارج (٦) . فلا حاجة للقول بالخلق من العدم . وبالتالي يمكن تفسير ظهور الجدة بون الوقوع فى إشكال القول بالخلق من العدم ، وبذلك يتسق فكر « رويس » مع الفكر الفلسفى الدينى المسيحى ، ويقدم فى نفس الوقت بل ويساهم فى تقديم حلول لإشكالاته .

إذا كان الله يخاطب الإنسان قائلاً « عليك قبل كل شىء ، أن تؤمن بوجود إله واحد ، خلق كل شىء ، وأتم كل شىء ، وأخرج كل شىء من العدم إلى الوجود ، فهو بكل شىء محيط ، ولا شىء يمكن أن يحيط به ، الله قد أسس كل شىء بكلمة منه ، وهو يستطيع بنفس هذه الكلمة أن يدمر كل شىء » فالواضح من هذه العبارات أن العالم فى المسيحية يتعلق بإرادة حرة تريده ، ويمده الله بالعون المستمر ، ويعتمد فى وجوده على الله (٧) .

فالحقيقة إذا صح هذا التصور المسيحى للعالم ، فإن « رويس » يتصور الطبيعة تصوراً

(١) سفر الخروج : ٣ : ١٤

(٢) سفر ملاخى : ٣ : ١٤

(٣) سفر التكوين : ١ : ١

(٤) آتين جلسون : روح المسيحية فى العصور الوسطى ص ١١٢

(٥) المرجع السابق ص ١٤٥

J.Royce : The World and Individual p.11 , pp. 225-235

(٦)

(٧) آتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى ص ١١٢

مسيحياً واضحاً ، فإذا كانت الطبيعة تجسيدا لوعى ، فلا بد ان يكون لهذا الوعى إرادة ، وأن يرغب هذه الظواهر الطبيعية ذاتها ، أى أنه يتمتع بإرادة حرة تريد هذا العالم ولا تريد غيره ، فالعالم ليس عالم « أرسطو » المنفصل عن المحرك ، وإنما عالم مرغوب فيه ، بإعتباره يحقق إرادة واعية ، حقيقة لم يقل « رويس » بالنسبة لتفسير نشأة الطبيعة ، بأنها قد خلقت من العدم ، ولكن من الواضح أنه لم يجعلها منفصلة أو مستقلة أو قائمة بذاتها ، أو مستقلة عن وعى يريدتها هكذا أو كما هي .

كذلك يلاحظ أن « رويس » يجعل للطبيعة وجهها الروحى أو بلغة الدين وجهها المقدس فالطبيعة ليست صماء أو جماد أصم ثابت ، وإنما يراها « رويس » كائنا حياً ، لها جانبها العقلى والشعورى ، وذلك نفس الموقف المسيحى من الطبيعة أو العالم ، فالطبيعة من خلق الله ، ولها أعماق ، كامنه هناك ورائها ، ويمكن الوصول إليها بالعقل أو بالتصوف ، فحقيقة يرى المسيحى الطبيعة كغيره من الناس ، وينسب إليها نفس الصفات التى ينسبونها إليها ، ولكنه يضىف عليها طابعاً إلهياً ، جاء من فكرة الخلق ، ومن طلب الله مشاركة الإنسان فيها (١) . كذلك من الواضح أن كل تصور مسيحى للكون ، يجعل الكون محققاً لهدف ما ، أو يخدم غاية معينة ، فالرب صنع الكل لغرضه (٢) ، بمعنى أن الله صنع الأشياء جميعاً لنفسه . وهناك يلاحظ أن إذا كانت الطبيعة ، كما فسرها « رويس » تجسيدا لهدف أو لغرض وذلك يتضح من تطبيقه لمفهومه « الرابع للوجود » ، فى تفسيره لها (٣) ، فإن الطبيعية لها غاية ، وأنها قد وجدت من أجلها . كذلك يلاحظ من جهة أخرى أن مثل هذا التفسير للطبيعة والذي جاء متسقاً مع روح المسيحية ، يمكن أن يؤدي أيضا إلى التخلص من أى تناقض ، قد يظهر بين المسيحية والعلم ، فإذا كانت الطبيعة تجسيدا لهدف ، أو محققة لإرادة ما ، فإن ذلك لا يتناقض مع إكتشافات العلم وإنجازاته ، لأنه مهما ظهرت قوانين جديدة ، فما هى إلا تعبيراً عن إرادة ووعى يتجسد ، وعى لا منتهى ، تعبر الطبيعة عنه دائما ، ولا تكون فى أى مرحلة من مراحل التعبير ، فى حالة إكتمال أو توقف ، فليس

(١) المرجع السابق نفسه من ١٤٩

(٢) الامتال : الاصحاح ١٦ : ٤

J.Royce : The World and The Individual p.II pp. 332-334

(٣)

هناك قوانين أو نظريات نهائية . وبذلك يساهم « رويس » فى حل إشكالية العلاقة بين النظريات العلمية والعقيدة المسيحية . كذلك ألا يعتبر تفسير الطبيعة وإثبات وجود وعى ورائها ، ما هو إلا صورة للأدلة اللاهوتية التقليدية على وجود الله ، أو التى تستدل من وجود العالم على وجود الله ، أى الانتقال من الطبيعة إلى الله ، يقول القديس « بولس » فى رسالته لأهل رومية ، رسالة الله ظاهرة فيهم ، لأن الله أظهرها لهم لأن أموره غير المنظورة ، ترى منذ خلق العالم ، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولا هوته ، حتى أنهم بلا عنز (١) .

ويأتى تأكيد النشأة الإجتماعية ، أو الأصل الإجتماعى لمفهوم الطبيعة ، متسقاً مع تفسير رويس لنشأة المسيحية ، وإعتبارها نتاج المجتمع المسيحى الأول ، فالمجتمع أصل الدين وأصل العالم . كذلك يأتى تأكيد النشأة الإجتماعية لمفهوم الطبيعة وصفاتها ، متسقاً مع إعلاء « رويس » لشأن وقيمه المجتمع . فلا وعى ذاتى بدون وعى إجتماعى ، ولا وجود للأشياء ، إلا بإعتقاد سابق فى وجود الآخرين ، ولا وجود للطبيعة بدون مجتمع . وبالتالي يصبح المجتمع أساس وجود المادة أو الأشياء الطبيعية . وإذا كانت النظرة التقليديه اللاهوتية للطبيعة ترى أن المادة قد إكتسبت وجودها ، بفعل قوة خارجية ، أو جاءت نتيجة لفعل الله ، فإن « رويس » يجعل « المجتمع » ممثلاً لهذه القوى ويعتبره الأساس الحقيقى لوجود الطبيعة . والحقيقة إذا كانت الطبيعة ما هى إلا مجتمع توليد (٢) ، ولا كيان لها بدون الأفراد ، وكان المجتمع أساس نشأة الدين ، ومصدر أساس للبصيره الدينية (٣) ، ولا وجود للذات إلا بالمقارنه مع الآخرين ، والوعى الإجتماعى أسبق من الوعى الذاتى ، ولا وجود للطبيعة بدون الخبرات المشتركة (٤) ، فالوجود الإجتماعى اسبق من الوجود الطبيعى ، فالمجتمع إذن أساس كل « أنماط الوجود » ، الأمر الذى يحدث نوعاً من الخلط والتشوش دائماً . ويؤدى دائماً الى ظهور التساؤل أيعتبر « رويس » «المجتمع» هو المطلق « أو الله ؟

والحقيقة أن تفسير الطبيعة ، والقول بوجود وعى ورائها ، يتصف بصفات معينة قد تزيد عن صفات الوعى الإنسانى ، أمر قد يثير الخيال والعاطفة ، ويثرى الوعى الدينى ،

(١) بولس : الرسالة الى اهل رومية ، الاصحاح الاول ايه ١٢/٢٠

J.Royce : The World and the Individual , p.II p. 11, pp.160-166 (٢)

J.Royce : The Sources of Religious insight pp.50-54 (٣)

J.Royce : The World and The Individual p.IIpp. 166-170 (٤)

ولكنه فى نفس الوقت يقلل من الوعى العلمى ومن تقدم العلم بصورة ، فالعلم يهدف للسيطرة على الطبيعة ، ويحاول التغلب عليها ولقد وضح أن النظرة للطبيعة باعتبارها مادة صلبة أو ثابتة ، قد أفادت البشرية ، حقيقة أن وجود هذا الوعى الطبيعى ، قد يفيد فى إدراك الأتسان لمعقولية الطبيعة ، وأن منطق الأشياء منطق العقل ، إلا أن القول بوجود هذا الوعى ، أو تفسير الطبيعة من خلاله ، تفسير يفسح المجال للخرافة ، والبعد عن الموضوعية ، ويؤدى إلى الإغراق فى الذاتية ، ويفيد الشعراء أكثر من العلماء . وإذا كان « رويس » قد إعتد فى إثبات هذا الوعى الطبيعى ، على المماثلة والصفات المتشابهة بين عمليات الطبيعة وعمليات العقل ، فإن هذا الإستدلال يشكل فى نفس الوقت خطورة على النظرة الموضوعية للطبيعة ، ويفسح المجال لصيغ الطبيعة بصفات إنسانية أخرى كالعواطف والإنفعالات ، الأمر الذى يشكل عقبة أمام البحث العلمى . إن معرفة الإنسان بوجوده مادة هناك ، يخلق الصراع والتحدى ، ويحفز الإنسان نحو البحث والدراسة ، ومحاولة فهم الطبيعة فهماً موضوعياً . إن إستنتاج وجود وعى للطبيعة ، وأنها تجسيد لوعى شامل ، ما هو إلا نظرة صوفية ، تؤكد أو تشير الى القول بوحدة الوجود ، وتخطب القلب بدل من العقل ، وإذا كان « رويس » قد فسر الطبيعة بمقولات منطقية محكمة ، « كالتباين » « والمقارنه » « والبينية » فإنه قد حول الوجود الطبيعى الى وجود منطقى ، وإنتهى إلى نظرة صوريه ، والحقيقة أن كلا النظرتين الصوفيه والصورية ، لا يقدمان تفسيراً يخدم تطور العلم ، أو الدراسة الموضوعية للطبيعة .

كذلك يلاحظ أن الإستدلال على وجود وعى وراء المادة ، لا يهدف إلى تفسير الطبيعة بفرد ما يهدف إلى إثبات المطلق ، وكان « الطبيعة » ما هى إلا دليلاً على وجوده ، وبذلك يصبح التفسير دينيا ، فالمطلق هو الغاية النهائية ، وكان الطبيعة لا قيمة لها فى ذاتها ، وإنما قيمتها فى أنها تشيد إلى حقيقة ورائها . كذلك يبدو أن تفسير الطبيعة عند « رويس » قد جاء محكوماً بقيدين ، الأزل منهما ، إثبات صحة المذهبية فى الفلسفة ، والثانى تقديم

تفسير مقنع لنظرية التطور . فالتفسير يتسق مع مفهوم « رويس » المثالي للوجود ، أو ما أطلق عليه المفهوم الرابع للوجود ، ومع نظريته فى المعرفة والصلة بين عالم الوصف وعالم التقدير ، والجانب المزوج لواقعة ، وجاء متسقاً مع نظريته فى الأخلاق ، فالطبيعة غايات ومثل عليا تسعى إليها ، والحقيقة أنه بالرغم من تحقيق هذا الإتساق ، إلا أنه قد أدى إلى التعسف ونوع من الخيال ، وكأن الإتساق المنطقى ، وقدرة المذهب الفلسفى على تقديم تفسير لكل شىء غاية كبرى . وأما القيد الثانى فمن الواضح أن التفسير قد قصد به ، تقديم تبرير منطقى لنظرية التطور ، وكأن « رويس » كان وارثاً للنظرية ، ولا فكاك منها ولا بد من إثبات صحتها . فالنظرية صادقة بصورة مطلقة . وأخيراً ألا يعتبر القول بوجود وعى للطبيعة ، بالإستناد على المماثلة ، بما يحدث فى الوعى الإنسانى نظرة ذاتية للطبيعة ؟ فما يحدث فى الداخل يحدث فى الخارج ، ويتم الإعتماد على الداخل لشرح وتفسير الخارج وبالتالي يعتبر الوعى الذاتى أساس الإعتراف بوجود الطبيعة ، وبذلك يتذبذب « رويس » بين المثالية الذاتية والمثالية المطلقة ؟ .